

تجليات السير ذاتي في نص غربة الراعي لإحسان عباس

The Manifestations of the Autobiographer in the Text of *Ghurbat al-Ra'i* (Shepherd Weirdness) by Ihsan Abbas

الدكتور: إسماعيل جبارة

Dr: Smail Djebara

جامعة ألكلي محند أولحاج - البويرة (الجزائر) ، s.djebara@univ-bouira.dz

تاريخ النشر: 2022/07/14

تاريخ القبول: 2022/06/07

تاريخ الاستلام: 2021/04/25

الملخص :

أسعى من خلال هذه المقالة الموسومة: تجليات السير ذاتي في نص غربة الراعي لإحسان عباس، أن أبرز مفهوم السيرة الذاتية، و مصطلح الميثاق السير ذاتي، والآليات التي يعتمد عليها القارئ لتصنيف النص ضمن نص السيرة الذاتية، كما أتوقف عند عنصر دلالة ضمير المتكلم في نص غربة الراعي، و جوانب التلاقي بين الشخصية الفنية، وشخصية المؤلف، وأوضح في الأخير أن نص غربة الراعي لمؤلفه إحسان عباس، ما هو إلا نص يحكي سيرة حياة المؤلف في كثير من المحطات.
الكلمات المفتاحية: سيرة، شخصية، مؤلف، سرد، ميثاق.

Abstract:

In this article, I attempt to highlight the concept of autobiography, the autobiographical character, and the mechanisms that the reader relies on to classify the text within the texts of autobiography. I also refer to the factor of the first person pronoun's semantic in the text of *Ghurbat al-Ra'i*. Besides, I attempt to mention the aspect of convergence between the artistic character and the author's personality. Finally, I am going to show that the text of *Ghurbat al-Ra'i* by Ihsan Abbas is nothing but a text that tells the authors biography in many stations.

Keywords: Autobiography, Personality, Ihsan Abbas, Narration, charter.

المؤلف المرسل: د. إسماعيل جبارة، الإيميل: somail36@yahoo.fr

1. مقدمة:

تعد مشكلة تحديد جنس النص من أهم الصعوبات التي تصادف أي قارئ للنص السير ذاتي، حيث يجد صعوبة في التمييز بين السارد، المؤلف، والشخصية المركزية، ويعتقد أن قصة الشخصية المركزية قصة خيالية أبدعها المؤلف من وحي خياله. ومن ثمة تبدو السيرة الذاتية - على وجه العموم - عبارة عن محاولة لصياغة الذات، وتأليف عالم دلالي من حولها، تتداخل فيه الأحداث، والمواقف والآراء، والتصورات بغية بناء صورة الفرد، باعتبارها تشخيصاً لواقعة ملموسة، أو مجردة من خلال التشابه، أو التطابق أو التمييز، والاختلاف ضمن علاقات معينة، ولو كانت مفترضة، وفي إطار نسيج اجتماعي معين، ولو كان مجرداً، وإن أي تحليل للنص السير ذاتي لابد من أن ينطلق من البحث في نظام اشتغال النص، وليس من الفروقات الشكلية و المضمونية له.

ويعد نص غربة الراعي لإحسان عباس من النصوص السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث، وهو نص يروي فيه الكاتب مراحل حياته بدءاً من مرحلة الطفولة مروراً بمرحلة المراهقة و الشباب، وصولاً إلى مرحلة الكهولة، روى فيه الكثير من الأحداث، والمحطات التي عاشها الشخص إحسان عباس. وأهدف من خلال هذه الدراسة إلى البحث عن مدى تجلّي جوانب السير ذاتي في هذا النص (غربة الراعي). فما هي القرائن التي نعتمد عليها في قراءتنا لهذا النص لتمييزه عن غيره من الأجناس الأدبية ؟ هل وضع لنا المؤلف ميثاقاً نبني عليه تصوراتنا للنص ؟ وهل تحقق التطابق بين العناصر التالية : المؤلف - السارد - الشخصية المركزية ؟ للإجابة على هذه التساؤلات رسمت الخطة التالية :

- مفهوم مصطلح السيرة الذاتية .
- مفهوم مصطلح الميثاق السير ذاتي .
- دلالة ضمير المتكلم في نص غربة الراعي .
- مدى التطابق بين العناصر التالية : (السارد-المؤلف- الشخصية المركزية).

2. مفهوم مصطلح السيرة الذاتية :

لقد تعددت المفاهيم والتعاريف التي وضعت لمصطلح السيرة الذاتية ، سواء عند نقاد الغرب أو نقاد العرب، ونحن في دراستنا هذه نقتصر فقط على بعض المفاهيم العربية لمصطلح السيرة الذاتية، فقد ذهب البعض منهم إلى اعتبارها: « سرد قصصي يتناول فيه الكاتب ترجمة حالة، وما يعترض له من معضلات وشدائد ، محاولاً تتبع الأحداث زمنياً وأهمية، وهو في السيرة الذاتية لا يذكر إلا ما شاء أن يذكره عن حياته ». (كاروان حاجي إبراهيم ، 2017، ص 14/13). في حين عدّها البعض الآخر على « أنها جنس أدبي عَصِيّا على التجنيس، وهي جنس

شديد الميوعة، والليونة والانصهار مع الفنون القولية الأخرى، إلى الحد الذي عدّ به الجنس المنتج من خلال السيرة جنسا مهجنا، تارة مع التاريخ، وأخرى مع الرواية، وثالثة مع الشعر». (كاروان حاجي إبراهيم ، 2017، ص 14/13)

ويعتبر الناقد عبد العزيز شرف واحداً من بين النقاد العرب الذين قدّموا تعريفا لمصطلح السيرة الذاتية، فقد عرّفها على أنها: تعبير عن أهم مظاهر الحياة الشخصية لكاتبها، وهي حياة لا ينفصل فيها الداخل عن الخارج، ذلك أنها في صميمها، تركيز وإشعاع، وانفصال، انطواء على الذات وافتراق عن الذات. « فالسيرة الذاتية سيرة إنسان من الداخل، هو في تواصل مع الخارج». (عبد العزيز شرف ، 1992، ص 18). بمعنى ترجمة حياة الإنسان كما يراها هو، بينما يطلق عليها محمد عبد الغاني حسن: مصطلح الترجمة الذاتية، ويعرّفها بقوله: هي أن يكتب المرء بنفسه تاريخ نفسه، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها، من أحداث تصوّل تبعاً لأهميتها». (محمد عبد الغاني حسن ، 1980، ص 25).

وهكذا يمكن اعتبار السيرة الذاتية بأنها ليست حديثاً عن النفس، ولا تدويناً لمفاخر والمآثر، ولا مجموعة من الأحداث، والأخبار المتناثرة، وإنما تقوم على مضمون تاريخي، وإمتاع أدبي حيث يصوغه صاحبه في صورة مترابطة. ويشترط في السيرة الذاتية وجود البناء الفني فيها مثل سائر الفنون القولية الأخرى. فالسيرة الذاتية تعد بمثابة صياغة للأحداث و عملية تقديم للأفعال ، والكتابة في السيرة الذاتية تختلف عن الكتابة في الأجناس الأدبية الأخرى .

3. مفهوم مصطلح الميثاق السير ذاتي :

لقد اعتبر الكثير من الدارسين المهتمين بفن السيرة الذاتية، مصطلح الميثاق على أنه اتفاق يعقده المؤلف مع قارئ النص، حيث يقود (الميثاق) القارئ إلى الوصول إلى حقائق تتعلق بتاريخ شخصية واقعية يُسرد لها، أما في حالة غياب هذا الاتفاق يصبح القارئ يعيش مع النص تجربة خيالية صنعها الكاتب، ويوقع القارئ في مأزق التجنيس، ويجعله أيضاً يبحث عن مدى واقعية النص، وارتباطه بحياة كاتبه، وارتباطه بالخيال. « فالسيرة الذاتية من الأجناس الأدبية المبنية على الثقة بين المؤلف و القارئ ، و لذا يتطلب من الكاتب السير ذاتي في بداية نصه إيجاد نوع من الميثاق الذاتي، الذي يتضمن الاعتذارات، والتوضيحات، والمقدمات، وإعلان النية وكلها شعائر إيجاد اتصال مباشر». (فيليب لوجون ، 1984، ص 39).

وهكذا فالميثاق السير ذاتي يقوم على ذلك « العقد الذي يبرمه المؤلف مع القارئ، لغاية التأكيد على التطابق بين المؤلف والبطل، والرجوع بكل شيء إلى الاسم الشخصي المكتوب على الغلاف » . (حسن بحراري ،

1984، ص 44). كما يكون الإعلان عن هذا الميثاق بطرائق مختلفة: « سواء في العنوان، أو في الإهداء، أو في المقدمة، أو في البيان الختامي، أو حتى في الأحاديث الصحفية التي تتم في وقت النشر. » (فيليب لوجون ، 1984، ص 29).

ولهذا نجد ميثاق السيرة الذاتية يرتبط بتتبع الحياة الفردية لشخصية معينة، وبالتالي فهي تقتضي التسلسل التاريخي، والتتابع الزمني للأحداث الذي عاشته هذه الشخصية، الذي يبقى من المقومات الأساسية لتأسيس السيرة الذاتية. ولقد قدم فيليب لوجون في ميثاق السيرة الذاتية رسماً عرض من خلاله، وضعيات ثلاث ممكنة بالنسبة لمعيارين: « أولهما اسم المؤلف، وثانيهما طبيعة الميثاق المنجز من طرف المؤلف، وتتنحصر هذه الوضعيات في كون الشخصية، إما تحمل اسماً مختلفاً عن اسم المؤلف، أو ليس لها أي اسم، أو تحمل نفس اسم المؤلف، وفي كون الميثاق يكون إما روائياً، أو غائباً، أو ميثاقاً للسيرة الذاتية. » (فيليب لوجون ، 1984، ص 14).

ومن هنا كان الاهتمام بقضية الميثاق، ومحاولة التفريق بين أنواعه المحددة لطبيعة النص، « طبيعة الميثاق هي البوصلة التي تسهم في التجنيس الذي نسعى إليه، وكذلك الكشف عن الطرق التي يقدم بها الميثاق، وأماكن تواجده ، فالميثاق السير ذاتي هو الحالة الأكثر تواتراً. » (فيليب لوجون ، 1984، ص 45). و يعد حداً فاصلاً في تحديد جنس السيرة الذاتية، ويبعد الشكوك حول انتمائها لأجناس أدبية أخرى، وفيه يتحقق التطابق بين العناصر الثلاثة: المؤلف، السارد، و الشخصية.

4. دلالة ضمير المتكلم في نص غربة الراعي :

يعد ضمير المتكلم من الركائز المهمة في بناء النص السير ذاتي، فهو علامة لغوية تستدعي مبدئياً مفهوم الشخص بمعنييه: النحوي والواقعي في النص، « لأنه يحيل بمقتضى كونه ضميراً سير ذاتياً على خارج النص بقدر إحالته على الشخص النحوي في النص، هذه الازدواجية في الوظيفة يحققها الضمير « . (خليل شاكراً هياش ، 2016، ص 40). وتتحدد مقولة الضمير الشخصي من خلال العلامة بين ثنائية "أنا" "أنت". إن "أنا" تعني الذي يتكلم، « و تتضمن أيضاً قولاً على ذمة أنا، فبالقول أنا لا يمكن لي أن لا أتكلم على نفسي ، وفي المخاطب أنت تتحدد ضرورة ب أنا ، ولا يمكن أن يتم التفكير خارج وضعية غير محددة انطلاقاً من أنا » . (نوسي عبد المجيد ، 2012، ص 45).

لقد اتسم نص غربة الراعي بالتوظيف المكثف لضمير المتكلم ، وهو ما يجعل النص أقرب إلى السيرة الذاتية منه إلى جنس أدبي آخر ، ومن ذلك العبارة التالية: « وقد عشت في ظل أم أحمد أياماً لا تتجاوز الشهر، وحين عدت من المدرسة لتناول الغداء ذات يوم لم أجد أحداً في البيت ، وفتشت لعلني أجد شيئاً أكله، فلم أجد إلا

كيسا من الورق في طاقة مرتفعة، فصعدت على كرسي وتناولته، فتحرك ما في الطاقة من تراب، وانهال على رأسي ووجدت الكيس يحوي على بعض السكر، فرددته إلى موضعه، وكان أن أحست بوجودي امرأة تسكن في شقة مقابلة». (إحسان عباس ، 2006، ص55).

إنّ ضمير المتكلم في نص غربة الراعي ، ينقلنا لنعيش الحدث كأنّه أمامنا، وأسلوب يكشف به عن باطن الشخصية، وخفاياها ووسيلة للتعبير، مثلما تعكسه هذه العبارة : خامرت نفسي فكرة تلبست بي، و لا أدري كيف تسلت إلى رأسي الصغير في تلك السن : « لا أستطيع أن أرجع إلى القرية، و أعدل عن طلب العلم . ربما كنت أول طالب في قريتي يهاجر للتعليم، فأنا إذا عدت لم يجرؤ أي طالب آخر بعدي من قريتي أن يخوض هذه التجربة. نعم أنا لا أقصد من هذا أن أورط الآخرين، ولكني أحب أن يكثر المتعلمون في قريتي». (إحسان عباس ، 2006، ص55).

وهكذا يتضح لنا أن ضمير المتكلم يمنح النص « وحدة بين أجزائه ، وإيهاما بالواقعية للصيقة بالبطل، وتستبعد احتمال الالتباس، أو تداخل الراوي في أحداث يراها من الخارج». (المحادين عبد الحميد، 1999، ص 26). كما أن ضمير المتكلم يعود في الغالب على « شخصية تخيلية في الرواية يحمل اسم علم أو لا يحمله، ولكنه يعكس بعض ملامح المؤلف دون أن يكون هو ذات ». (سعيد جبار ، 2004، ص25).

ويلعب ضمير المتكلم في نص غربة الراعي دورا مهما في تقريب القارئ من العمل السردى، ويجعله أكثر التصاقا به موهما إياه أن المؤلف (إحسان عباس)، فعلا هو إحدى الشخصيات التي ينهض عليها النص الحكائي، مثلما هو الحال في هذه العبارة: « وعندما كنت أعود إلى القرية - من بعد- كان أول شيء أقوم به هو الذهاب إلى المدرسة للاطمئنان على الشجرة التي غرستها، صحيح أنها أصبحت لشخص آخر ، ولكن حنيني إليها ، لم يكن يقل عن حنيني إلى البيت وأصدقاء القرية». (سعيد جبار ، 2004، ص25).

إنّ ضمير الأنأ - هذا قادر على النفاذ إلى أدق الدقائق، و أكثر غموضا، « فلا بد لأي "أنأ" في أية سيرة ذاتية، أوفي أية رواية أن تجعل الحوار الداخلي المونولوج سبيلا لعرض المواد المسرودة من الخروج إلى ضمير الأنأ». (صلاح ، صالح ، 2003، ص68). وتترجم هذه الوظيفة لضمير المتكلم (أنأ) من خلال هذه العبارة: « كنت كلما فكرت في حالي اعتراني الخوف من تلك الهوة التي قبلت التردى فيها طائعا ،فأنا معرض للمرض و لا أعرف طبيبا ، وإذا وجد الطبيب لم يكن معي ما أعطيه لقاء فحصه لي ، و لا ما أشتري به ما يصف لي من الدواء . ثم إنني لم أسأل نفسي كيف أحل مشكلة العثور على مسكن آوي إليه». (إحسان عباس ، 2006، ص48).

إنَّ في أيِّ محكي بضمير المتكلم يجب فيه على الدارس أن يميّز بين "أنا" الساردة، و "أنا" الشخصية، فهذه الأخيرة وحدها تنتمي للحكاية ، « وتتموضع على مستوى أعلى من الأولى التي تنهض بمهمة السرد ، فإذا كان السارد هو المتكلم الرئيسي (الذات الواعية) داخل نص من النصوص ، فإنّ مثالا واحدا للضمير المسند إلى المتكلم في صيغة أنا ، و إلى عنصر تعبيرى خارج الخطاب المباشر يتضمن ساردا بعينه». (ولغ غانغ كاييزير ، 1992، ص112).

فالمتكلم في نص غربة الراعي هو المرجع الوحيد لضمير المتكلم "أنا"، ومتى كان تام الحضور، فإنّ وجهة نظره لوحدهما هي التي يمكن أن يتم التعبير عنها داخل كل تعبير، وهذا ما تعكسه هذه العبارة : « حتى إذ كدت أنهي السنة الخامسة من العمر، و أدخل السادسة ، أوصى أبي صانع الأحذية في القرية أن يصنع لي بوتينا حذاء له عنق يحتضن جزءا من الساق، فلم أعد أستطيع أن ألعب في الطين، ولا أن أخوض الوادي الشامي، كان الدخول إلى المدرسة، لا يمكن أن يتم قبل بلوغ السابعة، ولكن صداقة والدي للمعلم الأول (المدير) في مدرسة القرية ذللت هذه العقبة فقبلت، وأنا في سن السادسة ، وبذلك قضى البوتين اللعين على طفولتي حين حدد لها نهايته». . (إحسان عباس ، 2006، ص29).

كما حمل ضمير المتكلم (أنا) في نص غربة الراعي دلالة على الشخص الذي أنجز التحقيق الخطابي، وهذا ما يظهر في العبارة التالية: « ولكني في آخر مملتي تحدثت عن خطباء القرى، وكيف يلقون على الناس خطبا يحفظونها، و لا تأثير لما يقولونه في الجماهير ، وأمضيت في الكلام ومثله، دون أن أنتبه لوجود إمام القرية في الحفل، وخرج الناس في اليوم التالي يقولون إنه كان يعرض بالإمام - خطيب القرية - فغضب الشيخ ...و هكذا وقعت في إحباط جديد». (إحسان عباس ، 2006، ص19/18).

إنّ تمظهر ضمير المتكلم - بوصفه من أكثر الضمائر هيمنة في السرود الذاتية- لا يعد أمرا غريبا ، « لأن السيرة الذاتية على نحو عام أدب قوامه ال (أنا) فهذا الضمير مصدر الكلام وموضوعه في آن ، كما أنه من أكثر الضمائر قدرة على تقريب المسافات وردم الفجوات». (خليل شكري ، هياس 2016، ص41).

وهكذا يمكن القول أن نص غربة الراعي للكاتب الفلسطيني إحسان عباس قد وظّف فيه صاحبه ضمير المتكلم المفرد ، وهو ما يجعل القارئ للنص يدرك بسهولة أن الذي يروي التجربة هو الشخصية المركزية صانعة الأحداث داخل النص.

5. مدى التطابق بين العناصر التالية : (السارد - المؤلف - الشخصية المركزية).

تعد إشكالية التطابق بين العناصر الثلاثة التالية : (السارد ، المؤلف ، الشخصية المركزية) من بين الإشكاليات التي تطرح على بساط النص السير ذاتي، وأن فهم عملية السرد يعني السيطرة على القوانين التي تحكم نسقه التتابعي، « ومن ثم يتحدد الفهم السردى بالتسليم بوجود ألفة مع الشبكة المفهومية المكونة لدلالات الفعل، ثم إنه يتطلب ألفة مع قواعد التأليف التي تحكم النسق التعاقبي للقصة. » (جنات بلخن، 2014، ص28). فالسرد يعطي لنفسه موضوعا ليس النصوص في ذاتها، لكن نموذجا من العلاقات التي تتجلي فيه. في حين نجد أن السارد الذي هو مختلف عن الشخص المتحدث عنه في ظاهر الأمر، إنما هو شخص واحد في باطن الأمر يقوم بوظيفتين: فهو يعيش الحدث فيكون شخصية قصصية، وهو يسرد ما عاشه فيضطلع بوظيفة القص.

ويأتي السارد في السيرة الذاتية شخصية واقعية (حقيقية) لحما ودما، وله وجوده المادي في الواقع ، « ويقوم بالحكي ملتزما بالصدق (الواقعي) للأحداث التي يرويها، وعلى مقدار صدقه يكون تأثير نصه في المتلقي، لأنه يعبر عن أعماقه، فيكون حديثه من القلب إلى القلب، ولا يتسنى لسيرته الخلود إلا إذا كان متصفا بالصدق، معبرا عن شعوره الدفين وأعماق نفسه». (شعبان محمد عبد الحكيم، 2015، ص129).

إنّ سارد الحكاية يجعل المسرودة مندمجة مع روح المؤلف، ويبلغ ذلك الحاجز الزمني الموجود بين زمن السرد، وزمن السارد ظاهريا على الأقل، فيبدو الزمن السردى وحيدا مندمجا بحكم أن المؤلف يغيب في الشخصية التي تسرد عمله، لأنّ السيرة الذاتية ليست إلا شكلا من أشكال السرد . « وكل أشكال السرد، للسيرة الذاتية مؤلفها يكتبها وسارد يسردها، وقارئ فضولي يقرأها. ثمة مقام سردى ومقام كتابي، وما تتميز به السيرة الذاتية هو هذا الالتباس القائم بين المقامين » . (شعبان محمد عبد الحكيم، 2015، ص103).

فكاتب السيرة الذاتية عندما يشرع بكتابة سيرته الذاتية، لا يملك إلا أن يعبر عن صوته وصوت راويه، « إذ يتخذ إزاء - ما يروي - مكانا مزدوج الحضور، فهو الذي يرتب الأحداث متنا ومبنى ، وهو الذي يصنع الحدث بوصفه كائنا يعيش داخل المتن المروي». (محمد صابر عبيد ، 2008، ص68).

وتكمن وجهة نظر صاحب السيرة وراويها، وهو يقص عن نفسه في خارج عمله أولا ، وداخله ثانيا ، « فهو كائن سيرى (السارد) - من حيث تطابقهما في النص السير ذاتي - لحظة تشكلهما النصي، وبذلك تكون الرؤية في السيرة الذاتية مصاحبة ، والايديولوجيا متأخرة لأن الأفعال المعيشة تفسر برؤية متأخرة في الزمن». (محمد صابر عبيد ، 2008، ص68). فالسارد في السير ذاتي سواء تعلق الأمر بسيرة ذاتية واقعية أم متخيلة ، « مسموح له أن

يتحدث باسمه الخاص أكثر مما يسمح لسارد محكي بضمير الغائب أو المخاطب، وذلك بسبب تطابقه مع الشخصية المركزية بالذات». (خليل شكري، هياس 201، ص38/39).

إنَّ الصيغة التي تضطلع بمهمة السرد في سيرة إحسان عباس الذاتية تحيل إلى الشخصية الرئيسية (البطل)، هو مرجع الكلام، أو موضوع السرد في هذا الموضع، فهي أكثر ملائمة واستعمالاً في النص السير ذاتي، و تستطيع خلق التطابق التام بين السارد (إحسان عباس)، و بين البطل (الشخصية المركزية)، وهو الطفل الصغير (إحسان)، مثلما هو الحال في هذه العبارة التالية: «وقبل السفر بيوم أمضيت يوماً كاملاً في صحبة أُمِّي بين زيتون المدق، وشاركت في جمع الزيتون، وحين أُتيح لي أن أبتعد قليلاً عن العاملين الآخرين، وجدت على الأرض عصفورين، كأنهما سقطا لتوهما من عش، ولم يستطع الطيران، ففرحت بهما كثيراً، وأخذتهما إلى أُمِّي. وفي اليوم الثاني اتفق والدي و الأستاذ عبد الرحيم على مكان اللقاء في حيفا، وذهبت بصحبة والدي إلى الحافلة التي تقف على مقربة من زيتون المدق». (إحسان عباس، 2006، ص 41/42).

فالشخص الذي يعيش الحدث في النص (غربة الراعي)، هو الطفل الصغير، أما الذي يسرد الحدث في النص هو إحسان عباس- الكاتب- الذي عاش الحدث في الضمير الشخصي بين (البطل) (الطفل) و الكاتب (السارد)، الذي أصبح رجل ناضج، بروي هذه القصة بعد عشرات السنين، يعرف كل الملابسات الحدث، «ذلك أن التطابق لا ينبغي أن يحجب الاختلاف في الوظيفة و الاختلاف ... إنَّ السارد يكاد دائماً يعلم أكثر من البطل حتى ولو كان هو البطل». (جيرار جينت، 2000، ص78).

وقد حمل النص (غربة الراعي) سمات التجربة الذاتية لمؤلفه (الكاتب إحسان عباس)، إذ صرح (المؤلف) في الكثير من المرات سواء داخل النص، أو خارجه، أن بطل النص في الحقيقة ما هو إلا إحسان عباس ذاته، ففي حديثه عن تاريخ ميلاد الشخصية الفنية داخل المتن، لمَح على وجود تقارب بين المؤلف، والشخصية الفنيّة حين قال: «حين حاولت استخراج جواز سفر لأول مرة (سنة 1946)، ذهبت إلى دائرة النفوس في مدينة حيفا، واستخرجت شهادة ميلاد، فعرفت أنني من مواليد شهر كانون الأول ديسمبر 1920، (أو على وجه الدقة 1920/12/2)، ومعنى ذلك ولدت في الشتاء، وقيل لي بعد بضع سنوات إنَّ المهنيين من عائلتنا جاؤوا لتقديم التهاني، وقدمت لهم جدتي (أم والدي) صاحبة الأمر والنهي بطيخاً (في غير موسم البطيخ)، كانت قد احتفظت به. « (إحسان عباس، 2006، ص21).

وعندما نتمتع في تاريخ ميلاد الشخصية المركزية، يتضح لنا أنه هو نفس التاريخ الذي ولد فيه الكاتب إحسان عباس، أي في الثاني من شهر ديسمبر من عام 1920، وحين تحدث الكاتب عن مسقط الرأس، اتضح لنا

-أيضا- عن وجود التشابه، والتطابق بين المكانين، فالمكان الذي ولدت فيه الشخصية المركزية هو عين غزال ، وهو نفس المكان الذي شهد مسقط رأس الكاتب إحسان عباس . وهذا ما يترجمه النص : «أما مكان الميلاد فهو قرية عين غزال، وتقع على أحد امتدادات الكرمل إلى الجنوب من حيف على مسافة تقارب 25كلمة، وينسب لها أمامها السهل الساحلي الذي يمتد على موازة البحر، وراء القرية إلى الشرق أرض جبلية، وأكثر أهل القرية مزارعون يملكون قطعا من الأرض موزعة في أرجاء السهول ». (إحسان عباس ، 2006، ص21).

و لمّح لنا السارد -أيضا - إلى وجود تطابق بين الاسمين، اسم المؤلف، واسم الشخصية المركزية، حين عبّر بقوله : « وقد شاع في محيط الأسرة الصغيرة أن الطفل الذي حمل اسم " إحسان "، كان طفلا مبروكا، وكان المسؤول عن إشاعة ذلك هو والده... ». (إحسان عباس ، 2006، ص24). وهكذا يتجلى لنا أنّ الكثير من مراحل حياة إحسان عباس، والأحداث التي عرفها، تتلاقى في الكثير من المحطات مع أحداث ومراحل حياة الشخصية الفنيّة في النص، حيث نلمس مشابهاة للشخصيتين (شخصية المؤلف، والشخصية الفنيّة) ، وهذا مما يوحي إلى وجود نقاط تلاقي بين شخصية البطل، وشخصية المؤلف.

كما نستشف تلميحا آخر في نص غربة الراعي إلى وجود شبه التقارب بين المؤلف، و الشخصية الفنيّة، إذ يصرح المؤلف داخل المتن باسمه الشخصي، وهو ما يظهر من خلال قوله : وعندما نجحت سنة 1949 في نيل شهادة الليسانس ، كان الذي يقرأ الأسماء ليحيى كل طالب في دوره هو الأستاذ محمد عبد الهادي أبوريّة الذي درسنا عليه الفلسفة الإسلامية، فافترت منه وقلت له : « أنا تلميذك إحسان عباس، فإذا قرأت اسمي فارجوا لا تقرن به لفظ الآنسة ،وبعد تردد يسير قرأ اسمي صحيحا وتسلمت الشهادة». (إحسان عباس ، 2006، ص84). كما صرح المؤلف إحسان عباس لمجلة الكرمل الفلسطينية سنة 1997 ، أن السرّ الذي جعله يختار هذا العنوان (غربة الراعي) لسيرته هو أن في طفولته كان راعيا للغنم. « لقد كنت راعيا في قريتي حين كنت صبيا ،وبقي الوعي أو اللاوعي الريفي ملازما لي طوال حياتي بأشكال مختلفة ». (إحسان عباس ، 1997، ص 92).

وكان من بين الأحداث التي عايشتها الشخصية الفنيّة في النص (غربة الراعي) ،حدث التسجيل لموضوع الماجستير، وإقامتها في الجمهورية العربية المصرية ، وهو نفس الموضوع الذي أعدّه الأستاذ إحسان عباس لمناقشة شهادة الماجستير ، ومن إشراف الدكتور شوقي ضيف ،يقول صاحب النص: «ولهذا سجلت موضوعا للماجستير هو الأدب العربي في صقلية الإسلامية بإشراف الدكتور شوقي ضيف ». (إحسان عباس ، 2006، ص187).

ففي الوقت الذي كان بصدد إعداد موضوع للماجستير ، في جمهورية العربية المصرية، ينزل عليه خبر مؤلم ، وهو إعلان قيام الكيان الصهيوني، وكان ذلك في 15ماي 1948، وهو الحدث الذي وقع في نفسية الفتى وقعا

مؤلماً، لأن المنحة التي كان يحصل عليها توقفت وابتلي شر بلاء ، وظل في مصر في أعسر أحواله ،أما عائلته فانتقلت إلى العراق . يقول السارد : « ثم أخذت تصلني رسائل أحمد سلامة وأخي بكر عباس من العراق » . (إحسان عباس ، 2006،ص187).

وأضحى البطل بعد النكبة في غربة اضطرارية. يقول السارد : «لم يكد يحل شهر مايو (أيار) الشهر الخامس من سنة 1948حتى هبت على وطننا (فلسطين) أعاصير عاتية بدد أهله في شتى النواحي، وهلك من أهله من هلك في المذابح، وكانت حكومة الانتداب هي التي تدفع المال للفلسطينيين المرسلين في بعثات ، فأوقفت دفع مستحقاتهم ، وقضيت بقية عام 1948، وبعض العام التالي، و أنا لا املك قرشا». (إحسان عباس ، 2006،ص181). والجانب الأهم في العلاقة الجامعة بين الشخصية الفنيّة والمؤلف ، هو مدى التطابق ، والتلاقي في الأحداث ،و المراحل التي مرت بها الشخصية الفنيّة داخل النص. فالمؤلف (إحسان عباس) ، «قد سرد في نصه (غربة الراعي) تاريخ حياته ، وذكر حقائق وحوادث واقعية متعلقة بشخصيته ، ذلك أن وعي المؤلف يتجسد مباشرة عبر الصوت السردي ، ويدخل في انسجام تام مع الشخصية داخل المحكي» . (سعيد جبار ، 2004، ص 17).

وقد صرح إحسان عباس لبكار يوسف في حوار أجراه معه بقوله: لم اقصد في سيرتي الذاتية شيئا يتوافق تماما مع السيرة الذاتية المشار إليها .فأنا لم أسع إلى صياغة قطعة فنيّة ، بل كتبت ما كتبت عفو الخاطر ، بعيدا عن الصنعة و التعمّل ، ذلك أن غاييتي كانت تقديم صورة عن إنسان عادي ، قاسم الشعب الفلسطيني قدره ومصيره ، وتحمل مشقة شعبه في مواجهة المنفى و تأمين شروط الاستمرار في الحياة ، بجد وكرامة ومثابرة ، «وبالتأكيد فقد كان من الممكن أن أعالج السيرة بأشكال أخرى ...وقد قصدت شكلا مختلفا من القول يتسم بالألفة و انعدام المراتب ، كي أترك القارئ العادي يتأمل قدرا شبيها بقدره ويحاور إنسانا قريبا». (بكار يوسف ، 2004، ص121).

ولقد أراد إحسان عباس من وراء كتابة سيرته الذاتية تقديم حياته البسيطة بأسلوب بسيط بعيد عن التكلف و التعقيد ، و كأنه أثر الهدوء و السكينة بعيدا عن الضجة و الضوضاء التي يحدثها البعض عند كتابة السيرة . فهو لم يفكر بانجاز عمل خالص للإبداع في كتابته للسيرة و إنما كان يسعى إلى التسجيلية التي أراد من خلالها أن يوثق حياته وانتقاله بين المنافي وغربه التي طالت كثيرا .»

وتتوحد في الخطاب نص غربة الراعي الأنا في مستوياتها الثلاثة (المؤلف، و السارد، و الشخصية). وإذا كان من المسلّم به أن نعتبر هذا التوحد مطلقا أحيانا بين المؤلف و السارد ،لأن الترهين السردي يرتبط بالمؤلف

مباشرة، فإنه من الصعب ضبط هذا التوحد بين المؤلف، و الشخصية الفاعلة التي يقدمها عبر مراحل زمنية متفاوتة تبعد، كثيراً أو قليلاً عن زمن الكتابة.

6. خاتمة :

لقد ازدهر البحث في فن السيرة الذاتية ،وأولى لها النقد العربي الحديث اهتمام خاص بها وفنونها وتقنياتها ، وذلك من خلال ماهيتها مقارنة بالفنون الأدبية الأخرى،ولقد توصلت بعد دراسة نص غربة الراعي لإحسان عباس إلى مجموعة من النتائج :

- 1- ويعد نص غربة الراعي لمؤلفه إحسان عباس واحداً من النصوص العربية الحديثة التي تعبر عن التجربة الذاتية لكتابتها ، فقد صوّر فيها الكاتب (إحسان عباس) الكثير من المحطات، و المراحل التي عايشها، وترجم لنا النص جوانب من التداخل بين مؤلف النص ، والشخصية المركزية ،والسارد .
- 2- سعت من هذه خلال الدراسة إلى الكشف عن أوجه التطابق بين المؤلف،والعناصر الفنيّة، (السارد ، والشخصية المركزية) ، حيث اتضح لي أن السارد لعب في النص دور الفاعل الذاتي الذي يقدم سيرته الخاصة الواقعية في مراحلها المختلفة . ويبقى نص غربة الراعي من النصوص التي جادت بها قريحة الكاتب العربي في فن السيرة الذاتية التي تستحق الدراسة و العناية.
- 3- تكمن أهمية دراسة نصوص السير ذاتي في الحقل الأكاديمي إلى التعريف بشخصية العظماء و الأبطال لتقديري بها الأجيال ، فيكون خير خلف لخير سلف ، كما أن الإطلاع على السير الذاتية لتلك الشخصيات تجعل الأجيال المستقبلية تتوقف عند نجاحات، وإخفاقات كاتب السيرة للاستفادة من التجارب السابقة، و تتجنب العثرات التي تعرضت لها شخصية النص طيلة مسيرتها الحياتية، ولهذا فإنه من اللازم أن تحظى نصوص السيرة الذاتية بالعناية و الدراسة في الدراسات و الأبحاث الأكاديمية .
- 4- جاء نص غربة الراعي لإحسان عباس صورة لواقع الاجتماعي و السياسي و الثقافي للمرحلة التي عاش فيها الكاتب ، وهي مرحلة في تاريخ فلسطين المعاصر ، حيث استهله بالمرحلة التواجد الانجليزي في فلسطين ، ثم توقف عند مرحلة حاسمة ، وهي مرحلة إعلان قيام الكيان الصهيوني ، وصولاً إلى مرحلة الحروب العربية الإسرائيلية .وهي مراحل عايشها إحسان عباس عن قرب ، رغم غربته الجسدية عن وطن أمه فلسطين .

5- كما جاء نص غربة الراعي ليسلط الضوء عن حياة البطل الذي عاش حياة الغريب منذ انتقاله إلى المدرسة الابتدائية التي تبعد عن مسقط رأسه في سن مبكرة ، ثم الانتقال إلى مصر ، ثم السودان ، و أخير لبنان .

7. قائمة المصادر و المراجع :

- 1-إحسان عباس : (2006)، غربة الراعي ، سيرة ذاتية ، دار النشر للتوزيع ، ط1، عمان ، الأردن.
- 2- المحادين عبد الحميد : (1999)، تقنيات السردية في روايات عبد الرحمان منيف ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ط1، بيروت .
- 3- جنات بلخن : (2014) ، السرد التاريخي عند بول ريكور : منشورات ضفاف ، منشورات الاختلاف، دار الأمان (د، ط) الرباط ، المغرب.
- 4- خليل شكري هياس : (2016) ، القصيدة السير ذاتية ، بنية النص و تشكيل الخطاب ، دار غيداء للنشر و التوزيع، (د،ط)الأردن .
- 5- سعيد جبار : (2004) ، السيري و التخيلي في الرواية المغاربية (ط1)، الرباط.
- 6-شعبان محمد عبد الحكيم : (2015) ، السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، رؤية نقدية ، الوراق للنشر و التوزيع ، (د،ط)الأردن .
- 7-صلاح صالح : (2003)، سرد الآخر ، الأنا و الآخر عبر اللغة السردية ، المركز الثقافي العربي ، (ط1) الدار البيضاء ، المغرب.
- 8- عبد العزيز شرف : (1992) ، أدب السيرة الذاتية ، ركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، (د،ط)، مصر .
- 9- كاروان حاجي إبراهيم : (2017) ، السيرة الذاتية في الحوار الأدبي، دراسة في كتاب تحولات الأرجوان لمحمد صابر عبيد ، دار غيداء للنشر و التوزيع (د،ط)، الأردن، 2017 .
- 10 - محمد عبد الغاني حسن : (1980) ، التراجم و السير ، دار المعارف (ط3) القاهرة .
- 11 - محمد صابر عبيد : (2008) ، سحر النص، من أجنحة الشعر إلى أفق السرد ، قراءات في المدونة الإبداعية لإبراهيم نصر الله ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر (ط1) ، لبنان.
- 12 - نوسي عبد المجيد : (2012) ، التحليل السيميائي للخطاب الروائي - البينيات الخطابية - التركيب - الدلالة ، دار النشر و التوزيع (ط1) ، الدار البيضاء.

- 14-جيرار جينت : (2000) ،خطاب الحكاية ، بحث في المنهج ترجمة محمد معتصم ، عبد الجليل الأزدي ، عمر حلي ، المشروع القومي للترجمة (ط2) ،مصر .
- 15- فيليب لوجون : (1984) ، السيرة الذاتية ، الميثاق والتاريخ ، ترجمة وتقديم عمر حلي ،ط1،المركز الثقافي العربي دار البيضاء .
- 16- ولغ غانغ كايزير : (1992) ،من يحكي الرواية ، ترجمة محمد أسويرتي ، منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط1،،الرباط .
- 17-بكار يوسف: (2004) ، حوارات إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، (ط1) بيروت لبنان .
- 18- عصام العسل : فن كتابة السيرة الذاتية (مقاربات في المنهج) ، دار الكتب العلمية 2010 .
- 17- إحسان عباس : أنا ذلك الراعي ، (1997) ، مقابلة مع إحسان عباس ، مجلة الكرمل ، مؤسسة الكرمل الثقافية ، رام الله العدد 51 .
- 18- حسن بحراوي : (1984) ، أنساق الميثاق الأطبيوغرافي ، السيرة الذاتية في المغرب نموذجا - مجلة آفاق المغرب العدد 4/3 .
- 19- فيليب لوجون : (1984) ، أدب السيرة الذاتية في فرنسا - المفاهيم والتصورات ، ترجمة ضحى شبيحة - مجلة الثقافة الأجنبية بغداد - العدد 4 .